خلود الحياة(١)

في فلسفة اقبال

كان شبح الموت المخيف الرهيب يبدو أمام الناس جسيماً عظيماً، وبقدر ما كانت جسامته وخطره كان في عين اقبال ضئيلاً متلاشياً. لعله كان يرى أن العقبة الكؤود في طريق رقي المسلمين الحرص على الحياة ومخافة الموت. أو كما عبر عنه الرسول الأعظم حب الدنيا وكراهية الموت. وقد وجد أن خوف الموت ليس معناه الا أمراً واحداً وهو ترجيح حياة الذلة والعبودية على موت الشرف والكرامة. فحاول أن ينتزع هذا المرض النفسي من صدور أهل الاسلام مبيناً أن خوف الموت والايمان لا يجتمعان في قلب واحد، وان الذين تسنموا غارب العزة والشرف هم الذين يحملون رؤوسهم على أكفهم في ميدان الكفاح ولا تنخلع قلوبهم فرقاً، ولا ترتعش عزائمهم جبناً. وإنما يقبلون على الموت اقبالهم على العرس، ويفرحون بالتضحية فرحهم بالنصر، مؤمنين بالفوز في الدنيا أو السعادة بلقاء الله.

(قل هل تربصون بنا الا إحدى الحسنيين) (فأما النصر وأما الموت فيه الفخر)

ثم يذكرنا اقبال بأسلافنا الماضين الذين ملكوا الممالك وأدالوا الدول ووطئت خيولهم القلاع والحصون وما اشتروا هذا المجد الا بدمائهم. فهو في قصيدته الشكوى يذكرنا بهذه الحقيقة في جلاء حيث يقول: —

فوق الصوامع والكنائس صوتنا　　قد كان يعلو بالأذان جهارا
ترنم الصحراء في أفريقيا　　بصلاتنا وتسابق الأطيارا
كنا نقدم للسيوف صدورنا　　لم نخش يوماً غاشماً جبارا
وكأن ظل السيف ظل حديقة　　خضراء تنبت حولنا الأزهارا

---

(١) مقتطفات من الكتاب الذي سيظهر قريباً بعنوان «فلسفة اقبال والثقافة الاسلامية في الباكستان والهند» ترجمة الاستاذ محمد حسن الاعظمي عميد كلية اللغة العربية في الباكستان والسكرتير العام للمؤتمر الاسلامي العالمي والشيخ الصاوي شعلان دبلوم معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد»

ثم يقول : —

لو وزن الآساد من أجلها لم يلق غير ثباتنا الميدان
وكأن نيران المدافع في صدور المؤمنين الروح والريحان

* * *

ويصف ذلك المسلم الذي يطلق كالسهم النافذ الى العدو بعد أن يكبر تكبيرة الجهاد في الميدان فيقول : —

ذلك المؤمن المجاهد يغشى غمرة الحرب والردى يخشاه
تحت ظل السيف ماض قوي درعه لا إله إلاّ الله

يبين لنا بعد ذلك ان الحالة قد تغيرت ، وان سنة الأقوام قد تبدلت ، واستحكم الجبن في قلوب الكثيرين من المسلمين ، وأسمحت وجوههم تصفر أصفرار الشمس عند الأصيل اذا ذكر الموت أو الحرب .

ثم يخاطب الذين يتقاعسون عن الجهاد، ويتخطفون عن النضال قائلاً : (ان خطباء منابركم ووعاظ أنديتكم أصبحوا غير نافعين ولا مغنين عنها) . ثم يقول : —

لم يبق في يد مسلم درع ولا سيف يصول به ليوم جهاد
لو أنه وجد السيوف فهل له ذوق الخلود وحب الاستشهاد
من كان يجزع من منية كافر هل يستطيب مصارع الأمجاد

إذا كان المرء مخلصاً لله حق الإخلاص ، واذا كان واثقاً بأن الموت ليس إلاّ العقبة الأولى التي يجتازها المرء الى الحظيرة الأبدية والمتعة بلقاء الله . أقول اذا كان الايمان هكذا فلا محل للخوف من الموت . أما أولئك المضطربون الخائفون فهم أولاً شاكون في لقاء الله وفي الخلود ، ثانياً فهم يعبدون المال ويؤثرون الحياة الدنيا ويظنون أن هذه الحياة المادية هي المرحلة الأخيرة للسعادة ، لذلك يخشون أن يموتوا فيحرموا . وبإقبال يحكم على هؤلاء بأنهم فقراء ، وان قارهم لا تساوي التراب ، وهم على كل حال سيموتون طوعاً أو كرهاً .

المؤمن الحق كان الله غايته والله كان لديه السمع والبصرا
والآن أضحى اله المال كعبته وخوفه الموت أفناه وما شعرا
سيان في الشرك هذا عابد ذهباً يسعى الى جمعه أو عابد حجرا
يا مؤمناً بلقاء الله مالك في ذعر من الموت قد أشبهت من كفرا
قد عاد قلبك ميتاً بين أضلعه كأنه في حنايا الصدر قد قبرا

من كان يحسب ان الموت داوية وانه عدم يستأصل البشرا
فنار آماله ينحط عنصرها الى التراب ويلقى الموت محتقرا

لما كان سم الموت سارياً في كل الدماء البشرية فقد حاول اقبال ان يوجد من نفس السم ترياقا. وكيف استطاع أن يصل بمهارة الى استخلاص هذا الدواء الغريب، انه عمد الى تذكيرنا بأن الموت أمرٌ محتوم، وان لكل انسان أجلاً محدداً، واذا كانت هذه النهاية قضاء نافذاً في الخلائق فالخوف منها لا يجدي فتيلاً. ومحاولة الفرار مع كونها جبناً وانحطاطاً في الوجدان فهي مخالفة لحكم العقل وصواب للتفكير أيضاً. فالعاقل لا يفكر في النجاة من القضاء المبرم، كما لا يفكر في أن ينفذ من أقطار السموات والارض، وهو في هذه الحالة الى الجنون أقرب وبالمجانين أشبه. ولهذا عرض لنا عدة صور تمثل فناء هذا الكون، وهي صور من حوادث الطبيعة تحمل الينا فناءً بديعاً في منظرها الرهيب المخيف، وتذكرنا عند مطالعتها بعوالم السماوات. والارض جميعاً في طريقها الى الانتقال أو الزوال وكما انها تعالج فينا خوف الموت، فهي كذلك تنبهنا من غفلتنا، وترفع عن أعيننا أغشية الغرور والركون الى زهرة الدنيا وفتنتها.

تحت نور الأفلاك عيش جميل وأرى النور ينطفي ويحول
وعلى كاهل المساء ترى للشمس نعشاً بكى عليه الأصيل
في سنا البدر للكواكب أكفان توارى بها الشعاع النحيل
بينما هذه الجبال حصون واذا صخرها كثيب مهيل
وتقيم الامواج في البحر أبراجاً ومن أوجها الرفيع نزول
ورياح الخريف تكرن للزهر وفي ثغره ابتسام بليل
ثم تأتيه ساعة يذهب الزهر هشيماً وقد طواه الذبول
ليس زاد المسافرين سوى الخوف من الموت والحياة رحيل

* * *

رب لحن فاق البلابل سحراً في ضمير الأوتار مات حنينا
شرر النار قبل أن يبلغ المهد توارى تحت الرماد دفينا

* * *

قطرات الندى على الورد تجري لؤلؤاً سائلاً على مرجان
لم تكد تسعد النواظر حتى بدد الريح شملها في ثوان

* * *

إن كأس الردى تطوف على الدنـــيا ويسقى أبناءها أجمعينا
وبلا موعد ودونـــ انتظار يبعث الأولين والآخرينـ

وقد حاول القائل أن يبدد من النفوس استسلامها الى الدنيا واخلادها الى نعيمها الزائل، ودعاها الى الحذر منها، والاحتياط فيها، فقدم هذا التشبيه الرائع في هذه الأبيات :

مثـل الحيـاة كطائر مترنم غنّـى فأرقص حوله الأزهارا
ما كان أعذب لحنـه لكـنه كالحلم حلـق في الفضاء وطارا

* * *

لا يعلم الانسـان كيف أتى الـ دنيا المتاعب أو متى يترحـل
ما نحن في الأكوان غير حديقة أزهارها عما قليـلٍ تذبل
يا أيها الحرص ابك في الدنيا وما دنياك كانـت بها لحيٍّ منزل

* * *

إنـ الحياة شرارة لم تبتسم إلاّ لتجعلنا لهـا أحطابا
في عرس دنيانا مآتم للردى تطوي شـيوخاً في البلى وشـبابا

* * *

والمرء لم يبرح أسيراً حائراً ما بين سر الأمس أو لغز الغد
ان الحيـاة على الأنام بخيلة بدوامها والعيش غير مخلد
الموت فيـهـا هينٌ كنـيـها والعيش أصعب من منال الفرقد

الله تعالى هو المنفرد بالبقاء، وجميع العالم لا بدّ أن يفنى . وتفسير حلم الموت جرى في حياة الملوك والصعاليك والعظماء والسوقة .

أما خلود الانسان فهو من تقدير الله في الأزل، إلاّ أن هذا الهيكل الترابي الناقص لا بدّ أن يمر عليـه الموت، ولا بدّ أن يمرّ الانسـان من هـذا العالم المملوء بالحوادث التي لم تترك صحراء ولا مدينة، ولم ينج منها برٌّ ولا بحرٌ . وفي ذلك يقول : —

الرعـــد والبروق والزلازل والقحط والآلام والنوازل
بنـات دنيـانا التي لا تلد إلاّ خطوباً جمرها متقــد
في الكوخ والقصر وفي الصحراء والمدنــ المنيـعة الشماء
وفي رياض البلبـل الرنان وفي تلال البـوم والغربان

يقتحم الموت بجيش القدر حصون فخور(؟) وبطش القيصر
اذا رأيت الموج في البحر سكن فالموت كامن لاغراق السفن
لا نغم العود ولا شكوى الحزين ولا ابتسام البشر أو دمع الأنين
ولا امتشاق السيف بين الدارعين ولا صدى التكبير بين الهاتفين
يعيد نبض القلب في الصدر الخراب أو يرجع النفس إذا حان الذهاب

وتعدّ هذه الصور الشعرية التالية نغماً لكل لغة، ونغماً شجيّاً لكل لسان، فهو يوضح لنا ان الآلام لا بدّ منها لتمحيص الانسانية، وعلى نيرانها تنضج الأرواح القوية، ولا يمكن الوصول الى الأفراح إلاّ بعد الأحزان، ولا تنقش الحكمة على القلب إلاّ بحروف من دمه، والبلبل الذي لم يعرف قسوة الخريف لا يحسن استقبال الربيع، والآلام هي الطريق الى النور والدرجات العالية في معراج العظمة. والذي لم يعرف أنين الماء، والعاشق الذي حرم في هواه من حسرة جراه، وقاطف الزهر الذي حافظ على يده سليمة من الشوك، والذي قضى طول عمره في الرفاهية والترف لم يكدح في تحصيل علم، ولم يكد في اقتناء فن واحياء عبقرية، أولئك جميعاً محرومون الى الأبد من الاحاطة بكنوز أسرار الحياة، واستخلاص الذهب من مناجمه العميقة. يقدم لك هذه الأمثال الجميلة في هذه القصيدة: —

ان كانت الحياة خراً صافياً يغرنا من رأسنا الى القدم
ففي الدموع للحياة جدولٌ تصغو به النفس وتثبت الهمم
ان حباب خمرة الآمال لا يرقص إلاّ فوق أمواج الألم
والله في حكمته علمنا ان انشراح الصدر قبله ألم
عواصف الخريف في ليل الشهاد علمت البلبل ترجيع النغم
دم الأماني فيه للشعر مداد وفي خطوب الدهر أسفار الحكم
نشيد هذا الكون يبدو ناقصاً حتى يتم الدمع ألحان النشيد
ما أيقظ الشباب من سكر الهوى إلاّ الأسى ينبه العقل الشريد
يا رب شاك صاغ في آلامه جواهر الألحان من بحر الأنين
قد كان مثل العود في أحلامه فأيقظته ضربات العازفين
آلامنا الى العلا أجنحة نعلو بها فوق مطارات النسور

الروح سرٌّ والحياة ظلمة وشعلة الآلام للأرواح نور
في خفقان القلب لحنٌ صامتٌ لم تحكه على غصونها الطيور

* * *

ان الذي لم يدر آفات الشقاء ولم تساهر عينه نجم السماء
ولم يحطم جام قلبه الأسى ولم يثر ظلام ليله البكاء
والساحر اللاعب طول عمره لم يستدم الا الى عذب الغناء
والعاشق المحروم في غرامه من لوعة الذكرى وحسرة الجفاء
ومجتني الزهر الذي لم تختضب يداه في الشوك بحمرة الدماء
جميع هؤلاء مهما سعدوا من نعم الدنيا بأمن ورخاء
فان أسرار الحياة تختفي عنهم وهم عنها دواماً في اختفاء

وانه ليلكك العجب اذا رأيت الشعراء جميعاً في ناحية، واقبال وحده في ناحية أخرى، فهم يتغنون بالوصال، ويذمون الفراق، ويتبرمون بالاسفار ويحمدون الاقامة الهادئة، بينما هو يحب الرحلة والتجوال، ويطرب لدمدمة الرعود، وأزيز المراجل، وصخبة الأمواج. فيقول:

الوصل في الحب غال وقيمة الهجر أغلى
الوصل حلوٌ ولكن عواقب الهجر أحلى

* * *

في القرب موت الأماني والعيش فيه فناء
والبعد فيه حياة يذكي ضياها الرجاء

* * *

أن اتقاد الأماني وحسن شدو الطيور
وضجة الخلق سعياً في العالم المعمور

* * *

والسحب حين تراها تسقي الربى واليباب
والموج في البحر يعلو حتى يفرق الهضاب

* * *

وكل ما في البرايا من روعة وجلال
لولا يد الهجر فيه لم يزدهر بجمال

يحدثنا اقبال عن الظواهر الكونية بلغة ساحرة ، ويبين لنا مراراً أن الربيع لا تتفتح أزهاره،ولا تخضر أغصانه ، ولا يبدو كل ذلك جميلاً في الحدائق ، إلا عندما تتساقط كل الأوراق بعواصف الخريف ، وتبدو الطبيعة جافة صامتة فاقدة حتى يوقظها ذلك الربيع بتغريد أطياره كما مر في العصور السابقة. فيقول لنا: إن ظواهر الحياة تعطينا درساً بليغاً. فليس الموت إلا غروباً لشمس الروح،ثم تطلع بعد ذلك في صبح الخلود الذي لا فناء بعده:

زعم الجاهلون أن المنايا مغربٌ فيه للحياة انقضاء
أفلم ينظروا الى الشمس يبدو نورها بعد ما طواها المساء
تغرب النفس ثم يشرق صبح فيه للنفس بالخلود انقضاء

عند ما أريد بناء مستشفى في الحجاز أراد اقبال أن يقدم إلينا من سحره بلسماً يهون صدمة الموت،ويوضح أن المرء بعد اجتياز تلك المرحلة يحيا حياة هانئة لا يحياها الخضر في عمره الطويل . ثم يهون احتمال الصدمة الأخيرة للحياة بعبارات سما فيها خياله وتصويره. فأنت ترى أن الشاعر ينظم القصيدة فإذا لم يجدها ملاءمة لطبيعة روحه حذف منها أشياء وأثبت غيرها جديدة،وأعمل فيها التغيير والتبديل . كذلك الرسام والمهندس والكاتب وكل الفنانين الذين نشاهد مبتكراتهم أمام أعيننا،والقدرة تبدع في فن الإنسان وترق به تحسيناً وتجميلاً . وليس الموت إلا حالة يراد بها إصلاح النفس واعلاءها،وتتجلى لك هذه الحقيقة واضحة في هذه الأبيات : —

يا أساة الحجاز هلا علمتم ان سر الحياة أرض الحجاز
أن سر الحياة يكمن في الموت فيحكي حقيقة في مجاز

* * *

فرح المؤمنين في سكرة الموت بقرب المهيمن المتعالي
هو أسمى من عيشة الخضر في الدنيا طوال الدهور والاجيال

* * *

لم جئتم للمؤمنين ببره ان زعمتم يداوي الجريحا
والذي ذاق من يد الوحي كأساً ليس يحتاج للدواء مسيحا

* * *

كل كون إن أبلته أيدي الليالي أحرقوه ليصنعوه جديدا
يهدم البيت بعد حين ليبنى منزلاً عالياً وقصراً مشيدا

[يتبع]